شعب من الحمير

تهلّلت أسارير السلطان، وهو يقرأ في واحدة من الصحف الرسمية عن اختراع آلة تحوِّل البشر إلى حمير!

لم تلبث تلك الابتسامة أن تحولت إلى قهقهة عالية، بعد أن ذكر تفصيل الخبر أن طبيبًا ألمانيًّا اخترع هذه الآلة؛ ليتمكن من إجراء تجاربه على الحمير دون الخوف من المنظمات الحقوقية، فقد اكتشف الطبيب الألماني أن منظمات الحقوق تثور، إما للإنسان أو للحيوان، جميع الحيوانات ما عدا الحمير، فلا أحد يثور لأجلها أحد أو يعترض!

ويبدو أن صوت الضحكة كان مجلجلًا، إذ دخل المستشار الأول للسلطان على إثر ضحكته المزعجة، وهو ينحني متملقًا، حتى أوشك أن يُقبّل قدمه، وهو يقول: خيرًا إن شاء الله، ما الذي يضحك مولانا هذا الصباح!

تجشأ السلطان في صوتٍ مرتفع مقزز، وهو يرمي بالصحيفة إلى يد مستشاره الأكبر، وهو يقول: اقرأ هذا الخبر المضحك، ثم قل لي: ما رأيك؟!

أمسك المستشار الصحيفة بيده اليمنى، وتلقّف باليسرى تفاحة ضخمة قذفها له سيده، فبدا أشبه ما يكون بالكلب!

وأخـذ يمـرّ على الخبر بعينيـه بسرعة، ثـم التمع بريق غامض في عينيه، وهو يقول: ما رأيك يا مولاي، في أن نستغل هذا الاختراع لمصلحتنا؟!

عقـد السلطـان حاجبيـه في تركيـز، وهو يقـول: وكيف ذلك؟!

استطـرد المستشار قائـلًا: تخيّل يا سيـدي، أن نشتري عددًا هائلًا من تلـك الآلات، ونضعها في مداخل دور التعليم وفي أسـواق المدينـة، ومن ثم يمرّ جميـع شعبك من خلالها، وفجأة، يتحول شعبك كله إلى حمير!

ازداد انعقـاد حاجبي السلطان، وهو يسأل في غباء: وما فائدتي من كل ذلك؟!

تقوّس ظهـر المستشار، ولامس أنفه الأرض فعلًا بين قدمـي السلطان، ثم اعتدل، وهو يقول: هـذا سؤال لا يسأله حاكم حكيم مثلكم يا مولاي!

تخيّـل أنك تحكـم شعبًا من الحمير، يعمـل دون كلل ولا ملـل، شعـب بـلا اعتراض، ولا إرادة، سوف تمتـد سنوات حكمك ثلاثين سنة أو ستين، وربما أكثر.

برقـت عينـا السلطان في جشـع، وهو يقـول: أريدك أن تشتري لي كل الآلات الموجودة اليوم.

بل الآن حالًا!

المستشار ينحني: أمرك مولاي، ثم ينصرف.

وبعد أسبوع واحد من شراء الآلات، وتعميمها على جميع المرافق والحدائق والأماكن العامة، استدعى الحاكم مستشاره على وجه السرعة، فيصطدم رأسه في المائدة الضخمة؛ ذلك أنه تسرّع في الانحناء.

الحاكم يمسكه من تلابيبه بقسوة، وهو يقول: ما الذي فعلته آلتك الحمقاء أيها المأفون؟!

المستشار يتظاهر بالغباء، وهو يقول: ما الذي فعلته يا مولاي؟ أخبرني!

الحاكم يقذف مستشاره بقسوة، فيقع بين قدميه، ويزأر في وحشية:

ألم تقرأ صحفنا الرسمية؟

المظاهرات تقوم ضدي في كل مكان، دولتي هي الدولة الوحيدة التي بدأت تجاهر باعتراضها على الحاكم، مسيرات طلابية ضخمة، طوابير لا تنتهي من المحتجين على سياستي في الحكم، والمفكرون يعبرون عن آرائهم بحرية، والكتاب والصحفيون يسلخون جلدي، وأنا على قيد الحياة.

كل ذلـك، وأنـت تتظاهر بأنك لا تعرف، ثم سـال لعابه فوق صلعة مستشاره، وصرخ غاضبًا: ما الذي يحدث؟

المستشـار يسجـد بين قدمـي السلطـان، ويرفـع رأسه بانكسـار، وهو يقـول بصوتٍ لا يكاد يسمـع: آسف يا سيدي، فقد قرأت حالًا الدليل المرفق بالآلة.

نظر الحاكم إلى مستشاره نظرة جفّفت الدم في عروقه، وهو يقول:

ما الذي يعنيه ذلك؟

خفّـض المستشار رأسـه، وهو يقول: الفقـرة الثانية من دليـل المستخـدم تقول: إنك بإمكانـك أن تحصل على نتيجة عكسية لو أردت.

انعقد حاجبا الحاكم في غباء، وهو يقول: أنا لا أفهم ما ترمي إليه. ما الذي تريد قوله؟

ترقرقـت الدموع في عيني المستشـار، وهو يقول: الفقرة الثانيـة تقـول في وضـوح: يـا سيـدي، إن تأثير هـذه الآلة لا يقتصـر على البشر فقط، أي إنه لا يكتفي بتحويل البشر إلى حميـر إذا مروا مـن خلال الآلة، بل إنـك بإمكانك أن تحوّل الحمير إلى بشر من خلال مرورهم في الآلة نفسها.

اتسعت عينا الحاكم في رعب، وهو يقول: هل تعني أننا حصلنا على بشر.

تحشرج صوت المستشار، وهو يقول: نعم، يا مولاي، لقد كنت تحكم شعبًا من الحمير طوال ثلاثين عامًا، وها هو الآن تحول إلى بشر!

خاطرة: قد يكون تخطيطك عاليًا ودقيقًا، ولكن دون قراءة متأنية وشاملة للتفاصيل، فتكون النتائج عكس ما ترجوه تمامًا.

obeikandl.com